متى ٢٥، ٣١-٤٦

٣ أحد مرفع اللحم

أحـــد الدينـــونة

"حينئذٍ يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا مباركي أبي...،
وللذين عن يساره: اذهبوا عني يا ملاعين"

يعطي يسوع في هذا النصّ الإنجيليّ صورة عمّا سيحدث يوم الدينونة الأخير. وكيف سيجلس هو على العرش "ويجمع إليه كلّ الأمم فيميز بعضهم عن بعض كما يميّز الراعي الخراف من الجداء".

ثلاثة حقائق أساسيّة تخرج من هذا النصّ، وتستحق منا التأمّل بها عميقاً. الأولى هي حقيقة يوم الدينونة، والثانية شمولية ذلك اليوم ومسكونيته، وأخيراً إن المحبّة هي معيار الدينونة. دينونة الله هي مبدأ إنسانيّ عامّ بحسب الضمير أوّلاً. فإنّ عدالة الله ومحبّته توعد بتصحيح الأمور المعوجة في هذه الحياة. وهو سيعوض للمظلوم وسوف يدين كلاً بحسب أعماله.

يوم الدينونة، واقع حقيقيّ وجزء من عقيدتنا أساسيّ. لقد كان مجيء المسيح الأول (ميلاده) هو منتهى الأيّام بالنسبة للعهد القديم، لأن الربّ حين يتجسّد سوف يدين العالم والأمم ويبسط ملكوت الله. وكتاب العهد الجديد يهيّئنا إلى مجيء الربّ الثاني ويضعنا في سهر وانتظار. ويكثر الربّ من الأمثلة والتعاليم التي تحثّنا على السهر لاستقبال ذلك اليوم الذي سيأتي بغتة، ويعطي بعض العلائم الدالة عليه.

سفر المزامير يستدعي الله بشوق ليتمّ العدل على الأرض ويبسط سيطرته على العالم ويدينه. إنّ غياب العدالة في هذه الحياة يجعل انتظار يوم الربّ شوقاً وصلاة حارة!

كتاب سفر الرؤيا هو الكتاب النبوي في العهد الجديد، الذي يتكلّم عمّا بعد زمن هذه الحياة وعن يوم الدينونة والغلبة الإلهيّة الأخيرة ومصير الناس. نعلن بوضوح في دستور الإيمان إيماننا بيوم الدينونة ونترجّى قيامة الموتى والحياة في الدهر الآتي.

الدينونة في المفهوم المسيحيّ ليست عقاباً ينـــزله الله بمَن أساءوا إليه، بل إنّها اللحظة التي يُقــيم فيها الله العدالة ويكشف عن الأعمال الحقيقيّة التي هي تدين كلّ إنسان. وتترافق تعاليم الكتاب عــن هذه الدينونة بلوحات مرعبة وصور مهوّلة، وذلك رغبةً بالتشديد على السهر من جهة وعلى تصــوير مقدار العذاب الذي سيلحق بالمهملين.

الخطأ الذي نقع فيه اليوم هو أنّنا نشعر بأنّ الربّ "أبطأ". تمرّ الأجيال، وانقضت الألفيــة الأولى وبعدها الثانية. وها نحن ندخل الألفيّة الثالثة! لذلك يتولد عند المؤمن اليوم الشعور بأنّ السيّد يبطئ، إن لم يتولّد الشعور أن الإيمان بيوم الدينونة هو تعليم تربويّ وليس حقيقة تاريخيّة ستحصل!

درءاً لهذا الخطر أنبأ يسوع من أيّامه وأوصى "ألاّ ننعس قائلين قد أبطأ"! إنّ انقضاء زمن طويــل دون حدوث المجيء الثاني يجب ألاّ يجعلنا نرتاح على أنّه سيبطئ؛ بل على العكس أن نزيد الســهر لأنّ زماناً طويلاً انقضى وبالتالي يقصر الزمان الباقي. نحن، خطأً، نعدّ الأيّام نحو يوم الربّ عدّاً تصــاعديّاً، أي كلّما انقضى زمان أطول كلّما آمنّا أنّه سيطول أكثر، وكلّما مضى زمان نؤمن أنّه سيبطئ. بينمــا العدّ الحقيقيّ هو عدّ تناقصي. أي كلّما انقضى زمان أكبر هذا يعني أنّ الزمان قد قصر، كما يخبرنا سفر الرؤيا. فإبطاء الربّ يضعنا في اليقظة أكثر. "أبطأ" تعني لنا إذن "الانتظار" بلهفة ويقظة أكثــر ولــيس "التأجيل"!

"اسهروا" هي الكلمة التي يجب أن تخرج إلى مسامعنا كلّما عبر زمان. وهذا ما تريده الكنيســة اليوم في هذا الأحد، حين نتذكّر يوم الدينونة الرهيب!

شامل هو حكم الربّ يوم يدين "الأمم"، كما يقول الربّ يسوع في النصّ الإنجيليّ الذي سمعناه. لأنّه سيجمع كلّ الأمم وليس أتباع دين دون آخر أو أبناء أمة دون سواها... الله هو أب الناس أجمعين بالرغم من اختلاف ألوانهم وأديانهم، وليس إله سواه. إنّه العادل الوحيد والأخير وهذا لا شك فيــه، لكن السؤال هو هل عند الله محاباة للوجوه؟ وكيف سيدين من هم خارج ديننا (الأمم آنــذاك أمــام سامعي يسوع)؟ ما هو المعيار المشترك يا ترى الذي سيأخذ الربّ به دون أن يظلم أحداً بــل ليقــيم العدل؟

لا شيء مشترك في حياة كلّ البشر سوى "المحبّة"! يختلف الناس بالدين، ويختلفون بالأعراق والجغرافيا والظروف والحضارات واللغات... كلّ شيء بين الناس مختلف، الأمر الوحيد المشترك بين كلّ الناس هو إنسانيّتهم أي محبّتهم وعمل الخير. لذلك يوضح يسوع أنّ الدينونة ستقوم على أساس "الأعمال" وليس على اعتبار آخر حتّى ولا الدين! هكذا عندما يفرز الخراف عن الجداء ويفصلهم عن يمينه وعن يساره لا يسأل عن أي معيار غير الأعمال الحقيقيّة، وهذه المحبّة العمليّة. وعلى هذا الأساس فقط يمكن ليوم الدينونة أن يكون شمولياً.

عندما تكون المحبّة هي معيار الدينونة، هذا يعني الكثير وخاصّة عندما يوحّد الديان ذاته بذوي الحاجات، فكل ما فعلتموه بهؤلاء "الصغار" (الضعاف) تكونون قد فعلتموه "بي"! هنا يريد السيّد أن يوضح تماماً ما ردّده يوحنا الحبيب أنّه لا يمكننا أن نحبّ الله الذي لا نراه إذا كنا لا نحبّ القريب الذي نراه. الدين كعلاقة حبّ وعبادة لله لا تقوم مباشرة بين المخلوق والخالق! إنّما يثبت الإنسان محبّته لغير المخلوق حين يعتني بخليقته! إنّ محبتنا العمليّة للقريب هي التي تبني المحبّة مع الله، أو العكس إنّ إهمالنا للقريب هو الذي يحدّد دينونتنا. هذا هو خطر "التقوى" الخارجيّة، حين نكثر من "العبادات" نحو الخالق ونهمل خدمة الناس. هذا هو التدين الهابط.

تحديد المحبّة معياراً للدينونة يريد به يسوع أن يشدّد على حقيقة، أنّ عدالة الله ترى مسؤوليّة مشتركة بين البشر، وسوف تدين على أساس حياة الشركة وليس حياة الفرد. لا تقبل العدالة الإلهيّة جواباً كـ" أفأنا مسؤول عن أخي؟" نعم أنا مسؤول عن أخي إن كنت أؤمن بوجود الله ويوم الدينونة العادل. عدالة الله سوف تحكم في مدى نجاحنا بهذه المسؤوليّة وليس على أي مقياس آخر.

تأخذ محبّة القريب طابعاً دينياً وليس اجتماعياً. إن مسؤوليتنا نحو القريب ليست في حيّز "الإحسان" إنّما في صلب "الإيمان" وهي معياره. ليس الدين مسألة فرديّة بين فرد وإلهه. الإيمان المسيحيّ مسألة شركويّة. السؤال يوم الدينونة ليس عمّا فعلنا مع الله، فهذا لا معيار له إلاّ بعض المظاهر! السؤال سيكون ماذا طبّقنا من الدين مع الآخر. هذه الوصيّة الجديدة التي شدّد يسوع أنّه جاء بها ويوصينا أن نحياها ليعرف الناس أنّنا تلاميذه. وهي أن الدين هو وصايا نحو الآخر وما نريده مع الله نبرهنه من خلال القريب.

الشركة مع الآخر ليست درجة مثاليّة في الدين بل هي جوهره؛ وغيابها لا يعني نقصان فضيلة ما فيه بل يعني تماماً غيابه كليّاً.

نعم سُنُدان يوماً، فلنسهر! وسنُدان جميعنا فلا دين ولا عرق ولا أي انتماء إنّما فقط الأعمـــال! سنُسأل آنذاك حصراً عمّا إذا كنّا قد عملنا من أجل محو وجه الأمم عن وجه الأرض!

هكذا نتحضّر للصوم، أوّلاً بالسهر لأن الزمان قصير! وثانياً التركيز على أنّ غاية أيّة ممارسة كما هو الصوم القادم، هي فعل المحبّة أنّنا لا نعبد الله إلا بخدمة أولاده البشر، وأن لا تديّن دون تقدمـــة ولا دين ليس من أجل الآخر.

إن الدين ويوم الدين يزيدنا التزاماً ومسؤوليّة.
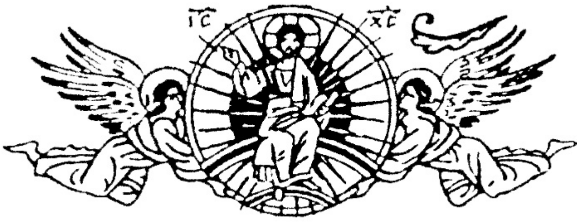
آميـــــن